موقف رسالي من أسرى بدر، وبني قريظة

يوسف مبارك

أسرى بدر:

قبل أن نتحدّث حول المحور الأوّل، لابدّ لنا من إلقاء نظرة ولو خاطفة على المعاملة القاسية التي راحت قريش تعامل بها من آمن برسول الله ﷺ ودعوته في مكّة، هذه المعاملة كانت سبباً مباشراً لاستحكام العداء بين هؤلاء المستضعفين الذين كلّ ذنبهم وجريمتهم في نظر مشركي مكّة أنّهم كانوا يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ وآمنوا بما جاء به محمّد بن عبدالله لا غير، بين هؤلاء وقريش استحكم العداء وأنتج آلاماً ومصائب حلّت بهذا الجمع المؤمن الذي ما استطاع أن يعيش في مكّة بأدنى مراتب العيش وأقلّها، فاضطرّ أخيراً إلى أن:

(١) يهاجر جمع منهم بعقيدته إلى بلد آخر (الحبشة) تاركاً بلده وقومه وماله وكلّ شيء لقريش، بعد أن أذن رسول الله ﷺ لهم بالهجرة.

(٢) فيما هاجر بعد ذلك رسول الله ﷺ وجمع آخر إلى المدينة تاركاً وطنه مكّة التي أحبّها قائلاً:

«ما أطيبك من بلدة وأحبّك إليّ! لولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت[١]. وفي رواية ما سكنت غيرك».

(٣) ثمّ جاءت هجرة من تخلّف من المسلمين في مكّة، فهاجر هذا القسم إلى المدينة ملتحقاً برسول الله ﷺ وتاركاً كلّ ما يملكه قليلاً كان أو كثيراً غنيمةً لمشركي قريش حتّى يسمحوا له بالهجرة.

فهذا صهيب وهو شيخ كان واحداً من هؤلاء المعذَّبين المهاجرين، حينما همَّ بالخروج من مكّة منعه المشركون، فقال لهم: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم أو لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم يضرّكم أو لم أضرّكم، فخذوا مالي ودعوني، فأعطاهم ماله، وهاجر إلى رسول الله ﷺ.

إنّ أكثر من هاجر كان معذَّباً من قبل قريش، ولم تكتفِ قريش بهذا فتتركهم وشأنهم، بل راحت تجرّدهم من جميع أموالهم وما يملكون، فما صادرت أموال الآخرين ممّن كانوا من أشراف قريش ومن ساداتها الذين آمنوا برسول الله ﷺ وهاجروا معه.. وعندئذ تميّزت أكثر دائرةُ العداء بل واستفحل أمره بين المسلمين والمشركين، حيث لم ينته هؤلاء الطغاة من ملاحقة أولئك المؤمنين حتى بعد هجرتهم، وبعد استيلائهم على ما عندهم من أموالٍ في مكّة، وحتّى بعد أن ابتعدوا عن المجتمع المكّي... وراحت جذور هذا العداء تمتدّ في العلاقة بينهما حتّى بعد فتح مكّة وإن هدأت شيئاً قليلاً.

لقد راح كلّ واحد من الطرفين يترصّد بالآخر، المسلمون بقيت مشاعرهم مشدودة إلىٰ بلدهم وعيونهم مفتوحةً على أموالهم التي استحلّها أعداؤهم المشركون في مكّة، وكانوا ينتظرون فرصةً تمنّ بها السماء عليهم لإعادتها، وهذا أمر طبيعي لا يختلف فيه اثنان.

---

(١) بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ٥٧ : ٢٢٩، روايات عدّة بألفاظ متقاربة.

فيما راح المشركون يعدّون أنفسهم بمواصلة وملاحقة المسلمين خاصّة المهاجرين وإن فرّوا بأنفسهم وتركوا أموالهم لاستئصالهم.. خوفاً من أن تقوى شوكتهم وينتشر أمرهم، ويذيع بين قبائل العرب صيتهم، فتدور الدائرة على قريش وسلطانها..

كانت لقريش رحلتان تجاريتان ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ...﴾[1].

وكانت هاتان الرحلتان تشكّلان العصب التجاري والاقتصادي المهمّ في حياتها بما تدرّان عليها من نعمٍ عظيمة ومالٍ وفير.

التفت المسلمون لذلك ورأوا أنّ فرصتهم آتية، وأنّ مسير قوافل قريش قريب منهم، وبالتالي إذا تمكّنوا منها فإنّهم يحصلون عوضاً عمّا ضيّعوه وتركوه في مكّة من أموالهم.. ويثأرون لأنفسهم، ويشفون صدورهم من مشركي قريش الذين أذاقوهم العذاب تلو الآخر، خاصّة وأنّ هذه القوافل هي لزعماء قريش وكبرائها لا لعوام الناس وسوادهم.

في خريف السنة الثانية للهجرة وردت أخبار إلى المدينة مفادها أنّ قريشاً خرجت قافلتها إلى الشام وعلى رأسها أبو سفيان مع ثلاثين أو أربعين رجلاً، وبما أنّهم محارِبون لله ولرسوله، راح رسول الله ﷺ وجمع من الصحابة يترصّدون أخبار عودتها من الشام وهي محمّلة، فقطعوا عليها طريق عودتها إلى مكّة، وكانت أهداف المسلمين من هذا العمل ويصحّ أن تكون أسباباً له:

أوّلاً: تنفيذ ما ندبهم إليه رسول الله ﷺ حيث قال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنفلكموها».

ثانياً: أخذ ما تحمله من أموالٍ عوضاً عمّا تركوه في مكّة واستحوذ

(١) سورة قريش: ١ ـ ٢.

عليه المشركون.

ثالثاً: إعلام المشركين بأنّهم لا يستطيعون أن يجنوا شيئاً من مؤامراتهم ومواقفهم الشريرة ضدّ المسلمين.

رابعاً: لعلّ قريشاً توقف اضطهادها لمن بقي من المسلمين في مكّة من الذين لم يستطيعوا مغادرتها بسبب تضييقها عليهم وتعسّفها في معاملتهم.

خامساً: تنبيه قريش أنّ تجارتها مع الشام في خطر ولاسيّما هي عصب حياتها، وتهديدها اقتصادياً، وهو ما أربكها وخلق الاضطراب في صفوفها.

لم يكتف أبو سفيان زعيم القافلة ـ بعد أن علم بترصّد المسلمين للقافلة ـ بأن يغيّر طريقها إلى موازاة البحر، بل بعث إلى مكّة من يخبر قريشاً بخطّة المسلمين وبما يناله من خطر إن لم يسعفوه بمددٍ.

وما إن سمع المشركون وبالذات كبراؤهم بالتهديد الذي يشكّله المسلمون على القافلة حتّى هبّوا بتسعمائة أو ألف مقاتل أو يزيدوا ليدافعوا عن أموالهم. وإذ هم في مسيرهم أقبل مخبر آخر من أبي سفيان يبشّرهم بأنّ القافلة قد نجت وليس هناك خوف عليها بعد أن غيّر مسيرها.

إلّا أنّ أبا جهل وكثيراً من مشركي قريش رفضوا العودة إلى مكّة مصرّين على أن يواصلوا مسيرتهم نحو المدينة؛ لتلقين المسلمين درساً بليغاً يجعلهم لا يعيدون ما فعلوا مرّةً أُخرى أو يحسبون له ألف حساب.

وهنا وردت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أنّ القافلة نجت، وأنّ المشركين لم يقنعوا بذلك ويكتفوا بنجاة قافلتهم، فيعودوا من حيث أتوا بل قرّروا التوجّه نحو المدينة وتهديدها.

لقد خرجت قريش بعددها وعدّتها، بخُيلائها وفخرها، وكان الحقد يملأ قلوبهم ـ إلّا قليلاً منهم ـ على المهاجرين، انبعث هذا الجمع الحاقد من قريش بكامل رغبتهم، أي لم يكونوا مقاتلين عاديّين مكرهين، بل كانوا مخطّطين لهذه

المعركة ومؤجّجين لها، وكان همّـهم الأوّل أن يـنتقموا مـن أبـناء قـومهم الذيـن فارقوهم، فحينما تقابل الجيشان في المعركة خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بـن ربيعة وابنه الوليد بن ربيعة، طالبين المبارزة، فخرج لهم فتية من الأنـصار وهـم عوف ومعوذ ابنا الحارث وعبدالله بن رواحة، ولمّا أبصرهم عتبة قال: لا شأن لنا معكم، أو ما لنا بكم من حاجة، وحينما انتسبوا قال لهم: أكفّاء كـرام، إنّمـا نـريد قومنا، فليخرج لنا من بني قومنا، أي من المـهاجرين؛ ليـصبّوا عـليهم غـضبهم وحقدهم ويشفوا قلوبهم.

فخرج إليهم عندئذ ثلاثة من المهاجرين: حمزة بن عبد المـطّلب وعـليّ بـن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، فقتلوا عتبة و من كان معه بـعد مـبارزة شرسـة قاسية.

أمّا القليل من جيش المشركين فكانوا من المغلوبين علىٰ أمرهم ولهم فـضل على المسلمين حينما كانوا في مكّة، فأمـر رسـول الله ﷺ أصـحابه أن لا يـقتلوهم وأمرهم بأسرهم، ومن هؤلاء بنو هاشم وكان العبّاس أحدهم وهو الذي تحمّل ألم مقاطعة قريش لبني هاشم في الشعب ثلاث سنوات، وطالما وقفوا ضدّ المشركين مدافعين عن المؤمنين.

ومنهم أبو البختري بن هشام الذي كان له الفضل في إنهاء المـقاطعة تـلك، وتوجّه إلى البيت لشقّ الصحيفة التي أكلتها الأرضة ولم يبقَ منها إلّا لفظ (باسمك اللّهم)، إلّا أنّ هذا الرجل لم يسمح للمسلمين بأسره وأصرّ على القتال حتّى قتل.

فكانت بدر، وكان النصر حليف المسلمين، والخزي والعار لأعدائهم، وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون آخرون كان منهم عشرون من كبراء قريش وقادتها.

ونحن هنا نكتفي بإلقاء الضوء على واحدة مـن نـتائج هـذه المـعركة، وهـم الأسرى وكيف كان الموقف الإسلامي منهم، وكيف تمّ التعامل معهم.

الموقف من أسرى بدر

كان الموقف من هؤلاء الأسرى يتمحور حول أمور ثلاثة :

الأمر الأوّل: موقف الصحابة .

الأمر الثاني: موقف رسول الله ﷺ .

الأمر الثالث: موقف القرآن الكريم .

وهذا الموقف له شكلان :

الأوّل: الأسر وحكم الأسرىٰ ، الآيات (٦٧ ـ ٦٩) الأنفال .

الثاني: بعث الأمل في نفوس الأسرىٰ . . . (٧٠ ـ ٧١) الأنفال .

موقف الصحابة:

حتى نهاية معركة بدر ، لم ينزل شيء أو حكم من السماء بخصوص الأسرى ، وإن كان هناك خبر بحلية الفداء[١] فما كان من رسول الله ﷺ ـ بعد غياب مثل ذلك الحكم ـ إلّا أن يستشير أصحابه ويسمع لهم في مصير السبعين أسيراً .

فبعد أن عاد رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ، التفّ حوله في المسجد كبار صحابته ، وطرح موضوع أسرى بدر وكيفية التعامل معهم ، وإلى الآن لم ينزل بشأن الأسرى شيء من السماء أيضاً ، فراح كلّ صحابي يدلي برأيه فيهم :

● فريق من الصحابة كان رأيه أن يبادوا جميعاً وكان منهم عمر بن الخطّاب حيث قال :

يارسول الله . . كذّبوك وأخرجوك ، قدّمهم واضرب أعناقهم . حتّى قال قائل : لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أمر بقتلهم .

---

(١) أنظر السيرة الحلبية ٢ : ١٩٢.

● فيما قال عبدالله بن رواحة الأنصاري أشدّ من قول عمر وإن كان ينتهي إلى النتيجة نفسها وهو قتلهم:

«يارسول الله .. انظر وادياً من حطب فأدخلهم فيه ثمّ أضرمه عليهم ناراً».

فسمع العبّاس بن عبد المطّلب وكان واحداً من الأسرى قول الأنصاري هذا، فقال له: قطعتك رحمك.

● فيما رأى أبو بكر و فريق معه الرأفة بهم والتأنّي في شأنهم، فقال: يا رسول الله .. قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم، لعلّ الله أن يتوب عليهم[1].

موقف رسول الله ﷺ:

كان لرسول الله ﷺ موقفان من هؤلاء الأسرىٰ:

الأوّل: كان يتمثل في رعايتهم، حيث إنّ من أهمّ الأُمور التي يجب توفيرها للأسير هو أن تحترم إنسانيّته وأن يؤمّن له أكله وملبسه، وأمّا سكناه فلابدّ من أن يوضع في مكان يأمن به ويؤمن عليه أي في مكان يتعذّر معه الهرب.

وهذا ما أمّنه الرسول ﷺ للأسير، وبما أنّه لم يكن هناك مكان خاص يجمع به الأسرى، ولأنّهم كانوا قلّة، ولم تكن الحروب يومذاك طويلة بحيث تستدعي الإبقاء على الأسرى مدّة الحرب وزيادة، لهذا نرى أنّهم وزّعوا بأمر رسول الله ﷺ على الصحابة، فكلّ صحابي يتكفّل بأسير منهم، ورسول الله ﷺ يوصي بهم خيراً.

فهذا أحد أسرى معركة بدر وهو أبو عزيز بن عمير وكان أخاً لمصعب بن عمير، يقول: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا كلّما قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصيّة رسول الله ﷺ إيّاهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلّا نفحني بها، وكنت أستحي فأردّها على

---

(١) أُنظر أسباب النزول للواقدي: ٢٤٢ ـ ٢٤٥.

أحدهما فيردّها عليَّ ما يمسّها[١].

وعندما وقع آخر أسيراً في يد المسلمين وهو ثمامة بن آثال، أُتي به إلى المدينة وربط بسارية من سواري المسجد حتّى يحكم فيه الرسول ﷺ فقال ﷺ: أحسنوا أُساره واجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا إليه. وكان يقدّم إليه لبن لقحة (ناقة حلوب) رسول الله غدواً ورواحاً ولمّا منَّ عليه ﷺ أسلم وحسن إسلامه.

والعبّاس بن عبد المطّلب هو الآخر كان أسيراً من أسرى معركة بدر الكبرى، فلاحت من رسول الله ﷺ نظرة إليه وقد تمزّق ثوبه، فالتفت ﷺ ليجد له قميصاً يصلح، فوجد قميص عبدالله بن أُبي فطلب منه فكساه إيّاه[٢].

وهذا هو الموقف الإسلامي في رعاية الأسرىٰ والاهتمام بهم فقد جعله القرآن الكريم ثالث ثلاثة إن أطعموا فإنّ ذلك يكون مورداً لنيل رضا الله سبحانه وتعالى: وعدّ الإنفاق عليهم من القربات ذات الأجر العظيم ﴿وَ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناًوَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِاللهِ لانُرِيدُمِنْكُمْ جَزاءً وَلاٰ شُكُوراً﴾[٣].

الثاني: بعد أن أعلن جمع من الصحابة موقفهم الذي ذكرناه راح رسول الله ﷺ يُثني عليهم ويشبه موقف كلّ فريق بموقف نبيّ من أنبياء الله تعالى.

فشبّه الأوّل بموقف نبيّ الله نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً﴾[٤].

فيما شبّه الثاني بموقف نبيّ الله عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥].

(١) موسوعة الغزوات الكبرى لمحمد أحمد باشميل: ٢٢٤ـ ٢٢٥، مجمع الزوائد ٦: ٨٦.

(٢) فتح الباري ٦: ٤٨٥.

(٣) سورة الدهر: ٨ـ ١٠.

(٤) سورة نوح: ٢٥.

(٥) سورة المائدة: ١١٨.

وكان رأيه الأخير أن خيّر الأسرى فقال:

«أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن منكم أحد إلّا بفداء أو ضرب عنق».

وتمّ إبلاغ مشركي مكّة بقرار رسول الله ﷺ هذا، وهم يعيشون الذهول ممّا حلَّ بهم والحزن والألم ممّا أصابهم والذلّ والعار ممّا جرح كبرياءهم وأطاح بعنجهيتهم كلّ هذا في معركة بدر، فغدوا يفكِّرون في مصير أسراهم... وقد كان المطلب بن وداعة السهمي ممّن كان حاضراً مجلساً لزعماء قريش، وقد سمع ما قرّروه فيه من عدم التعجيل في فداء أسراهم حتّى لا يتغالى المسلمون فيه، إلّا أنّه ما إن خرج من مجلسه هذا حتّى توجّه نحو المدينة، وفدى أباه الذي كان واحداً من أسرى بدر بأربعة آلاف درهم.

ولما سمعت قريش بهذا، أرسلت من يطلق أسراها ودفعت عن كلّ واحد منهم أربعة آلاف درهم.

وانتهت مسألة الأسرى هذه عملياً.

إمّا بفداء دفعه الموسرون منهم وكان مقداره أربعة آلاف درهم لكلّ أسير.

وإمّا بمنٍّ تكرّم به الرسول ﷺ على فقرائهم.

وإمّا بتعليم جمع من أطفال المسلمين القراءة والكتابة، فقد كان من الأسرى من يقرأ ويكتب، فجعل عمله هذا فداءه.

ما آلت إليه مواقف بعض الأسرىٰ:

قلنا: كان من بين الأسرى عمّ النبي ﷺ العبّاس بن عبد المطّلب، وقد أبلغ المسلمون رسول الله ﷺ رغبتهم في إعفاء العبّاس من الفداء وإطلاقه مجّاناً؛ لقربه من رسول الله، فرفض ﷺ ذلك، وكلّف العبّاس بأن يدفع الفداء كغيره من الأسرى، هذا ما ذكره ابن كثير[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٩٩.

وأراد العباس أن يخرج من الأسر بلا فداء يقدّمه، ولمّا وجد رسول الله صلى الله عليه وآله مصرّاً على أن يقدِّم الفداء، طلب منه أن يحسب كمّية الذهب التي صودرت منه يوم بدر من الفداء، فرفض الرسول صلى الله عليه وآله طلبه وقال: لا.. ذلك شيء أعطانا الله عزّوجلّ. أي هو غنيمة.. وفي رواية: أمّا شيء خرجتَ تستعين به علينا فلا.(١)

ثمّ قال للنبي صلى الله عليه وآله: يارسول الله، إنّي كنت مسلماً، ولكنّ القومَ استكرهوني.

إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أصرّ على أن يدفع الفدية، وقد كان من الموسرين، من أغنياء مكّة، فدفع الفداء عن نفسه وعن ابني أخيه وهما عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن عبد المطّلب، وعن حليف بني هاشم عتبة بن عمرو بن جحدم، وهؤلاء كانوا من أسرى بدر، وكان فداء كلّ واحد منهم مئة أوقية من الذهب، وكان ذلك بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّ العبّاس حاول جهده في أن يفلت من هذا أيضاً معتذراً، فقال: لا مال لي. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أين المال الذي وضعتَه عند أُمّ الفضل، وقلتَ لها: إن أصبت، فللفضل كذا، ولعبيد الله كذا؟

قال: والذي بعثك بالحقّ، ما علم به أحد غيري وغيرها، وإنّي لأعلم أنّك رسول الله.

وفدى نفسه وابني أخويه وحليفه(٢).

وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الآية الكريمة: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّا أُخِذَ مِنْكُمْ...﴾ نزلت في هذا المورد، ويأتي الكلام فيه.

ثمّ رجع العبّاس بعد إطلاقه إلى مكّة، ويقال: إنّه أسلم وكتم إسلامه، فكان عيناً على المشركين، يبعث بأخبارهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ ترك مكّة قبل الفتح، وعاد

(١) أُنظر أسباب النزول للواقدي: ٢٤٥.

(٢) أُنظر: الكامل لابن الأثير ٢: ٩٢.

إليها وقد شهد فتحها مع المسلمين، وكان ممّن ثبت في معركة حنين، وسجّل دوراً مهمّاً فيها وبالذات لصوته الجهوري حينما راح يدوي في سماء المعركة ويحض المنهزمين من المسلمين على الثبات..

أمّا الأسير الآخر من بني هاشم فهو عقيل بن أبي طالب، فقد أسلم عام الفتح وشهد معركة حنين وثبت فيها، وشهد معركة مؤتة. وأمّا نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف وهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، أسلم هو الآخر.

وأمّا أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس فقد بعثت زوجته زينب بقلادة سبق وأن أهدتها لها يوم زواجها من أبي العاص هذا أُمّ المؤمنين خديجة، فلمّا رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّةً شديدة، فقال للمسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا. فأطلقوا سراح زوجها وردّوا إليها قلادتها. وقد أسلم أبو العاص.

وكان من الأسرى الذين افتدوا أنفسهم من الأسر سهيل بن عمرو بن عبد شمس العامري، وهو من أشراف مكّة ومن خطبائها المشهورين الذين كان لخطبهم أثر كبير في الدعوة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فقد قدم مِكرز بن حفص في فدائه، فلمّا قاولهم فيه مكرز وانتهىٰ إلىٰ رضاهم قالوا: هات الذي لنا، قال: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتّىٰ يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرزاً مكانه عندهم..

يقول الخبر: لمّا جاء وقت دفع الفداء عنه، طلب عمر بن الخطّاب من الرسول ﷺ أن يحدث له عاهة لا يتمكّن بعدها من أن يقوم خطيباً ضدّ النبيّ ﷺ حيث قال: يارسول الله، انزع ثنيتي سهيل يدلع لها لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موضع أبداً.

فرفض الرسول ﷺ طلب ابن الخطّاب وقال:

لا أمثّل فيمثّل الله بي وإن كنتُ نبيّاً، ثمّ قال النبيّ ﷺ لعمر: دعه فعسى أن

يقوم مقاماً نحمده.

وصدق رسول الله ﷺ فيما قاله. فقد عاد سهيل بعد إطلاق سراحه من الأسر إلى مكّة، وهو الذي عقد صلح الحديبيّة مع النبيّ ﷺ، ورفض أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، التي أمر رسول الله ﷺ بكتابتها، قائلاً: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللّهم، ورفض أيضاً ما أمر به رسول الله ﷺ أن يكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله.. قائلاً: لو شهدت أنّك رسول الله لم أُقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

هذا سهيل وهذه مواقفه قبل إسلامه، ولكنّه أسلم عام فتح مكّة وله موقف يذكر حينما توفّي رسول الله ﷺ وارتدّ بعض أهل مكّة وقف خطيباً وقال:

يا أهل مكّة، لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأوّلهم ارتداداً، والله مَن رابنا مِن أمره شيء ضربنا عنقه كائناً من كان..

فكان بهذا قد أخمد الفتنة.

وله موقف آخر ينصر به المعذَّبين، فقد حضر الناس باب عمر بن الخطّاب، وفيهم أبو سفيان بن حرب وشيوخ من قريش، وكان سهيل معهم، فخرج إذن عمر يأذن لأهل بدر.. لصهيب الرومي وبلال الحبشي وغيرهم من أهل بدر.

فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنّه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا.

فقال سهيل بن عمرو:

أيّها القوم، إنّي والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشدّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافسون فيه، ثمّ قال: أيّها القوم، إنّ هؤلاء قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فألزموه، عسى الله عزّوجلّ أن يرزقكم الشهادة، ثمّ نفض ثوبه ولحق

بالشام، وخرج بجماعة أهله ـ إلّا ابنته هند ـ إلى الشام مجاهداً حتّى ماتوا كلّهم هناك، واستشهد في معركة اليرموك[1].

حقّاً فعسى أن يقوم مقاماً نحمده!

والوليد بن الوليد كان من الأسرى أيضاً فأرسل كلّ من خالد وهاشم وهما أخواه بفدائه، وعاد إلى مكّة ثمّ أعلن إسلامه فيها، ولمّا سُئل عن سبب إسلامه: هلّا أسلمت قبل الفداء؟

فقال: خفتُ أن يعدّوا إسلامي خوفاً.

وقد منعه أخواه حينما عزم على الهجرة إلى المدينة ليلتحق بركب المؤمنين، إلّا أنّه فرّ إلى النبيّ ﷺ في عمرة القضاء.

وهب بن عمير الجمحي، وأبوه عمير من شياطين قريش وكان كثير الإيذاء لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وقد وهبه رسول الله ﷺ لأبيه عمير في قصّة ملخّصها:

أنّ عمير بن وهب وصفوان بن أميّة جلسا يتذاكران ما حلّ بهم في معركة بدر من هزيمة كبرىٰ وذكر أصحاب القليب فقال عمير: أما والله لولا دَين عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشىٰ عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلىٰ محمّد حتّىٰ أقتله، فإنّ لي قبلهم علّة، ابني أسير في أيديهم.

فاغتنم صفوان هذا وتكفل بدينه وعياله.

فدخل عمير المدينة متوشحاً سيفه، فأدخله جمع من الصحابة علىٰ رسول الله ﷺ فقال له: ... فما جاء بك يا عمير؟

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال ﷺ: فما بال السيف في عنقك؟

قال: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟!

---

(١) أُنظر الاستيعاب، والإصابة في تمييز الصحابة ٢: ١١٠.

قال ﷺ: أصدقني، ما الذي جئت له؟

قال: ما جئت إلّا لذلك.

قال ﷺ: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثمّ قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتّىٰ أقتل محمّداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، علىٰ أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير: أشهد أنّك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلّا أنا وصفوان، فوالله إنّي لأعلم ما أتاك به إلّا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثمّ شهد شهادة الحقّ.

فقال رسول الله ﷺ: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا.(١)

ومن الذين منَّ عليهم رسول الله ﷺ ولم يأخذ منهم فداءً، أبو عزّة، عمرو بن عبدالله بن عثمان، كان محتاجاً ذا بنات، فكلّم رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، لقد عرفت ماليَ من مالٍ، وإنّي لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليَّ.

فمَنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه ألّا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزّة في ذلك يمدح رسول الله ﷺ، فذكر فضله في قومه:

مـن مُـبلَغ عـنّي الرسـول مـحمّداً بأنك حـــقّ والمــليك حــميد
وأنت أمرؤٌ تـدعو إلى الحـقّ والهـدى عــليك مـــن الله العـظيم شـهود
وأنت امـــرؤٌ بُـــوّئت فـينا مـباءةً لهـــا درجـــات ســهلة وصــعود
فـــإنّك مَـــن حـــاربتَه لُـمحارب شـــقيّ ومَـــن ســـالمته لســعيد
ولكـــن إذا ذُكّـرتُ بـدراً وأهـلَه تأوّبَ مـــا بـــي حسـرةً وقـعود

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٦٦١ ـ ٦٦٢.

أسيران قُتلا!

كان من بين أسرى معركة بدر أسيران: النضر بن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار وقد حمل راية المشركين في بدر، والثاني عقبة بن أبي معيط من بني أُمية ابن عبد شمس بن عبد مناف.

وكانا عنيفين بعداوتهما للمسلمين، حريصين على التنكيل بهم، شديدين في إيذاء المستضعفين منهم، وكانا من ألدّ خصوم الدعوة وأشدّهم. إنّهما مجرما حرب أكثر من كونهما أسيرين.

ففي طريق عودته ﷺ من معركة بدر وعندما وصل إلى الصفراء أمر عليّاً عليه السلام أن يقتل النضر بن الحارث أو أن يضرب عنقه بالأثيل.

ولمّا رأى النضر أن يقتل طلب من مصعب بن عمير أن يكلّم رسول الله ﷺ في أمره، فقال له مصعب: كيف يمكن هذا؟

أما كنت تقول في كتاب الله وفي نبيّه كذا وكذا؟

وأما كنت تقوم على تعذيب أصحابه؟

وراحت أخته قتيلة بنت الحارث ترثيه، ومَن سمع شعرها قال: إنّ شعرها أكرم شعر موتور وأحسنه:

أيا راكباً إنّ الأثيل مظنة ... من بطن خامسة وأنت موفق
أبلغ به ميتاً فإنّ تحية ... ما إن تزال بها الركائب تخفق
منّي إليه وعبرة مسفوحة ... جاءت لماتحها وأخرىٰ تخفق
فليسمعن النضر أن ناديته ... إن كان يسمع ميتٌ أو ينطق
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
أ محمّد ولأنت صفو نجيبة[1] ... في قومها والفحل فحل معرق

---

(١) أمحمد يا خير ضنء كريمة.

مــا كــان ضــرك لو مننت وربـما مــنّ الفتىٰ وهـو الغـيظ[1] الخـنق
فــالنظر أقـرب مـن تـركت قـرابـة وأحـــقهم إن كــان عـتق يــعتق

وروي: أنّ النبيّ ﷺ قال: لو سمعت هذا الشعر قبل أن أقتله ما قتلته[2]، والجواب: أنّ النبيّ ﷺ أقام عليه الحكم العدل الذي لا تغيره أبيات من الشعر علىٰ جودتها وحسنها، فما نسب إلى النبيّ ﷺ من القول المذكور لا أظنه يصمد أمام النظر الدقيق، وعن بن هشام أنّ هذه غير صحيحة، وهو الحقّ.

وموقف عقبة مجرم الحرب الثاني لا يقلّ عن موقف النضر.

فما إن وصل إلى عرف الظبية حتّى أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، والذي قتله عاصم بن ثابت الأنصاري.

تقول الرواية: إنّ النبيّ ﷺ لمّا أمر بقتل عقبة، قال: أتقتلني يا محمّد من بين قريش؟

قال ﷺ: نعم.

ثمّ قال ﷺ لأصحابه: أتدرون ما صنع هذا بي؟

جاءني وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتّى ظننت أنّ عينيَّ ستندران من رأسي، وجاء مرّة أُخرى بسلا شاة (وهو ما يعقب الولادة من أوساخ وقاذورات) فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي.

إذن فهما الأسيران الوحيدان اللذان قتلا صبراً للأسباب التالية:

١ ـ كانا من أشدّ الناس كفراً وبغياً.

٢ ـ كانا من أكبر مثيري الحرب (معركة بدر) ومن الدعاة إليها والمحرّضين

---

(١) المغيض.

(٢) أنظر بلاغات النساء: ٢٣٥.

عليها بقوّة.

٣ ـ كانت لهما جرائم ارتكبوها، صحيح أنّهما لم يكونا الوحيدين اللذين ارتكبا الجرائم، ولكن مَن كان مثلهما في الجريمة قتل داخل المعركة وانتهىٰ أمره، ولو بقوا أحياءً؛ لكان مصيرهم القتل كذلك.

٤ ـ كان لهما تأثير واضح على مشركي مكّة، فهم يسمعون لهما ويطيعون، ولهما القدرة علىٰ إقناعهم بما يريدان ويدبّران.

٥ ـ إن بقيا حيّين فهما يشكّلان مصدر خطر عظيم على الإسلام والرسولﷺ والمؤمنين، ولاسيّما أنّ الحرب والمواجهة مع قريش لم تنته بعد، وهناك جولات مقبلة..

٦ ـ كانا يسخران من القرآن ويقولان فيه ما لا يناسب من القول.

٧ ـ لطالما وجّها لرسول اللهﷺ إهاناتهم وأسمعوه الشيء الكثير من الكلام البذيء، وطالما حرّضا عليه، وتربصا به الدوائر سواء في مكّة أو المدينة.

٨ ـ كانا يلتمسان أيّ وسيلة وكلّ ما يتمكّنان منه ليوقعا الأذى بالمسلمين في مكّة، وتنفير الناس منهم.

فرأى رسول اللهﷺ أنّ قتلهما فيه مصلحة كبرى للإسلام والمسلمين ودرءاً للفتنة، وقد قتلا قبل أن يصل الرسولﷺ إلى المدينة وقبل اتخاذ قراره بخصوص الأسرى.

موقف القرآن الكريم:

قلنا: إنّ الموقف القرآني من أسرى بدر، وهو الموقف الثالث بعد موقفي الصحابة والرسولﷺ له شكلان:

الأوّل:

يدور حول الأسر وبيان حكم الأسرىٰ، وهو ما تناوله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ

الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

اللغة

الثخانة لغةً: الغلظة، فكلّ غليظ: ثخين، والإثخان في كلّ شيء عبارة عن قوّته وشدّته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدّت قوّته عليه(٢). واثخان النبيّ في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنّه شيء غليظ انجمد فثبت بعد ما كان رقيقاً سائلاً مخشي الزوال بالسيلان...(٣).

القراءة:

قرأ أبو الدرداء وأبو حياة: ﴿ما كان للنبيِّ...﴾(٤).

البيان:

كانت معركة بدر الكبرى أوّل معركة خاضها المسلمون ولما تنزل بعدُ أحكام الجهاد وأحكام تخصّ المعارك ونتائجها من غنائم وأسرى وغير ذلك. وجاءت الآيات لتبين أنّ هناك هدفين أو همّين:

هم يراود المقاتلين المسلمين وهمّ تريده الآيات.

○ كان الهمّ الأوّل لأغلب المسلمين هو أن يغنموا ما في قافلة قريش التي كانت برئاسة أبي سفيان عوضاً عمّا خسروه وتركوه من أموالهم في مكّة.. وتهديداً لقريش ومصالحها.. لعلّها تكفّ عن ملاحقتهم والتآمر عليهم..

ولمّا علمت قريش بذلك غيّرت خطّتها ثمّ حشدت مقاتليها لخوض المعركة مع المسلمين.. توجّه المسلمون لميدان المعركة وما زال ذلك الهمّ يراودهم في

(١) سورة الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٤: ٨٥٧.

(٣) الميزان في تفسير القرآن للعلّامة الطباطبائي ٥: ١٣٤.

(٤) أنظر معجم القراءات القرآنية، الآية.

الحصول على الغنائم.

○ كان الهمّ القرآني على العكس من ذلك، همّه قتل الكفّار وتقتيلهم وإنزال أقسى الضربات بهم ﴿... فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1] ولم ترد في الآية كلمة الأسر، الغنائم...

وقد عبّرت عن هذه الضربات وذلك القتل والتقتيل بالإثخان.. وملاحقتهم، واجتثاثهم من الأرض، حتّى يكونوا عبرةً لغيرهم، في أن لا يعاودوا الكرّة على المسلمين.

فإذا تمّ الإثخان بكلّ ما يحمله من معانٍ، من القتل والغلبة والشدّة والرعب.. جاء دور الأسر كما قال تعالىٰ بعد ما استقرّ الإسلام في الحجاز واليمن: ﴿...أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ..﴾.

ثمّ تأتي المرحلة الأُخرى بعد الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً﴾[2]، هذه المراحل التي أرادها القرآن الكريم وبيّنها فيما بعد.

وهذا الموقف القرآني كان هو موقف رسول الله ﷺ أيضاً كما سيتّضح لنا من البحث.

إذن ما كان لكم أيّها المقاتلون المسلمون أن تبتغوا عرض الحياة الدُّنيا بأسر أعدائكم لتفدوهم أو تمنّوا عليهم، فكلّ هذا متاع الدُّنيا الزائل، وهذا ليس من شأن رسول الله ﷺ ﴿ما كان لنبيّ...﴾ وعلىٰ قراءة أخرىٰ ﴿ما كان للنبيّ﴾ أي ليس له ولا في عهد الله إليه. لأن يكون له أسرىٰ من المشركين ليفديهم أو يمنّ عليهم ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ حتّىٰ يبالغ في قتل المشركين ليرتدع به مَن وراءهم...[3] قبل أن تعملوا السلاح بقوّة في رقابهم، وما كان لكم أن تتهاونوا فيهم بغية أسرهم

(١) سورة الأنفال: ١٢.

(٢) سورة محمّد: ٤.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٣: ٨٥٨.

ليكونوا غنيمةً لكم، فهو الدُّنيا بعينها وحبّ بأعراضها، وكان الأجدر أن لا يجدوا فيكم هوادةً أو رأفةً أبداً وأن لا تتركوهم إلّا وهم يعيشون الرعب من قوّتكم وفتككم بهم، وأن تجعلوا الضعف يلازمهم والوهن يلاحقهم طيلة حياتهم حتّى لا يعودوا لمثل ما جاؤوا به وما فعلوا، وهي فرصة عظيمة لكم كان بإمكانكم استثمارها داخل ميدان القتال، فإذا بالغتم في قتلهم وقهرهم يرتدع مَن وراءهم، وأكثر من هذا تواصلوا القتال لتغلبوهم على بلادهم وتذليل أهلها كما علىٰ رأي بعض في تفسير الإثخان، حتّى تتمكّنوا في الأرض، لا أن يكون همّكم أسرهم ومفاداتهم والحصول على الغنائم وهو هدف ليس فيه بُعد نظر للمستقبل، فيما التفكير السليم أن تجعلوهم لا يفكّرون في العودة لكم، بعد أن جاءوا للقضاء عليكم.

فقد كانت كفّة الميزان راجحة للمقاتلين المسلمين، وكانت ساحة المعركة بأيديهم فكان بإمكانهم أن ينزلوا العقاب الرادع بعدوهم، وخير دليل علىٰ هذا هو قلّة شهدائهم فقد كانوا أربعة عشر رجلاً، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، فيما كان قتلى العدو سبعين رجلاً بينهم من قادة قريش وزعمائها، وأمّا أسراهم فكانوا سبعين أيضاً بينهم زعماء من قريش، ولم يؤسر أحد من المسلمين.

فمع جلالة وعظمة البدريين، وأن بجهودهم ودمائهم رويت شجرة الإسلام وأزهرت، لم يترك القرآن الكريم عملهم هذا بلا تعريض أو عتاب أو لوم، ليكون ذلك لهم درساً في مستقبل حياتهم الجهادية، إنّها تربية السماء التي ما انفكت تلاحق المؤمنين فتثني عليهم إن أحسنوا، وتعاتبهم إن أخطأوا، ليكون هذا ضمن دروس إيمانية متواصلة، وابتلاءات متلاحقة ورقابة مستمرة؛ لإعدادهم الإعداد الذي تبتغيه السماء وتريده لهم في دنياهم وأخراهم.

حقّاً كان الأولى استئصالهم من جذورهم ولا يتركونهم يعودون إلى أهلهم، ولاختصر المسلمون لو عملوا هذا الوقتَ في نيل أهدافهم وتحقيقها بكبح أقوى

قوّة تواجّههم في دعوتهم الجديدة ولما وقع ما وقع لهم، ولما عادت قريش لهم في أحُد وما حلَّ بالمسلمين من خسائر فادحة..

والذي يؤيّد هذا وأنّ الكثير منهم كان يبغي من هذه الفرصة المتاحة هو الظفر بالقافلة، وبما أنّهم لم يظفروا بها تراهم بذلوا جهدهم في أن يأسروا منهم ما يستطيعون به تعويض ما لم ينالوه، فراحوا في المعركة يبذلون جهدهم في تجريد أعدائهم من السلاح ومنعهم من القتال، بدلاً من أن يُعملوا السلاح بشدّة في رقابهم وهم في ساحة الوغى. إنّ القرآن جاء يبيّن لهم خطأ ما فعلوه. وأنّ ما أرادوه لا تريده السماء بل تريد الآخرة لهم، وتنالوها لو قاتلتم هؤلاء الطغاة الذين أذاقوكم الخوف والذلّ والهوان ولم تدخل قلوبهم الرحمة بكم، ولم يفكّروا يوماً بالعفو عنكم، أو يتركوكم وشأنكم..

يقول سيّد قطب: الإثخان المقصود: التقتيل حتّى تضعف شوكة المشركين وتشتدّ شوكة المسلمين، وهذا ما كان ينبغي قبل أن يكون للنبيّ والمسلمين أسرى، يستبقونهم ويطلقونهم بالفدية كما حدث في بدر، فعاتب الله المسلمين فيه.

ثمّ يواصل قوله: لقد كانت غزوة بدر هي المعركة الأُولى بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون ما يزالون قلّة والمشركون ما يزالون كثرة، وكان نقص عدد المحاربين من المشركين ممّا يكسر شوكتهم ويذلّ كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرّة على المسلمين، وكان هذا هدفاً كبيراً لا يعدله المال الذي يأخذونه مهما يكونوا فقراء..[1].

وهناك في داخل معركة بدر ما يؤيّد هذا، وأنّ ما فعله بعض المسلمين لم يكن محلّ قبول رسول الله ﷺ وإنّما كان خلاف ما يريده، لهذا جاء صدر الآية نافياً ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ ...﴾ حتّى يثخن القتل والتقتيل في أعدائه، ولا يكون

(١) في ظلال القرآن، سيّد قطب ٣: ١٥٥٢.

أكبر همّه أسرهم بل إنزال العقاب الصارم بهم ؛ لأهداف عظيمة تبتغيها السماء .

تقول الرواية عن ابن إسحاق : «فلمّا وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ متوشّحاً السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كرّة العدوّ ، ورأى رسول الله ﷺ فيما ذكر لي في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله ﷺ : «والله لكأنّك يا سعد تكره ما يصنع القوم! قال : أجل والله يارسول الله ، كانت أوّل وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال!

وممّا يدلّ على هذه الرغبة الجامحة بأسر أعدائهم ، أنّ عبد الرحمن بن عوف أسر أُميّة بن خلف ، فأبصره بلال الحبشي وقد ذاق منه الأمرّين في مكّة إذ كان يضع على صدره في شدّة الحرّ صخرة كبيرة ويطلب منه ذكر الرسول ﷺ بسوء والعودة إلى عقيدة الشرك ، فيأبى بلال ، وكلّما اشتدّ عليه الألم قال : أحدٌ أحد ، فقال رأس الكفر أمية بن خلف : لا نجوت إن نجا واستعان ببعض الأنصار لقتله وعبد الرحمن يحرزه منهم ، إذ كان يطمع في فدائه بمال ، ولكن تمّ التمكّن منه والقضاء عليه ، وكان مع عبد الرحمن أدرع من السلب ، فقال أُميّة حين أسره : أنا خيرٌ لك من هذه الأدرع فألقاها وانفرد بأُميّة ، ولمّا قتل أُميّة قال عبد الرحمن : رحم الله بلالاً فجعني بأدرعي وأسيري[1] .

النضر بن الحارث كان أسيراً للمقداد ، وكان يطمع أن ينال من فدائه مالاً كثيراً ، ولمّا رأى أنّ الأمر يدور حول قتله صاح : النضر أسيري ، ولكن الرسول ﷺ أمر بقتله ودعا لمقداد أن يُغنيه الله من فضله .

مرّ مصعب بن عمير بأخيه أبي عزيز بن عمير وقد أخذ به أحد الأنصار

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم ٢ : ١٠٠ .

أسيراً ووضع القيود في يديه، فقال مصعب للأنصاري: شدّ يديك به، فإنّ أمّه ذات متاع لعلّها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بي؟ فقال مصعب: إنّه أي الأنصاري أخي دونك.

ومع عظمة موقف مصعب هذا إلّا أنّ القصة هذه تبيّن لنا همّ الربح (الفداء) الذي كان يراودهم الحصول عليه.

وليس هذا في الأسرىٰ فقط بل في الغنائم عموماً. كان موقف أكثرهم ينصبّ على الغنائم، فتراهم يتنازعون في حيازتها، فقال من جمعها: هي لنا، وقال الذين يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لو لا نحن ما أصبتموها، لنحن شغلنا عنكم القوم حتّىٰ أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يصل إليه العدو: والله ما أنتم بأحقّ بها منّا، لقد كنّا ونحن نحرس رسول الله نرى الغنائم وما يحملها أحد، وكنّا نستطيع حيازتها لو أردنا، ولكنّنا آثرنا حماية رسول الله عليها، لقد خفنا أن يقتحمه العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ بها منّا.

صحيح أنّ هذا الموقف لم يكن موقفاً عاماً يتصف به جميع المقاتلين، وصحيح أنّه موقف بعض فقرائهم وهم الذين بلغ منهم الفقر مبلغاً رقّ منه لهم رسول الله ﷺ ودعا لهم فقال: «اللّهم إنّهم حُفاة فاحملهم... اللّهم إنّهم عراة فاكسهم». وصحيح أنّهم لم يطلبوا باطلاً بل كانوا يعتقدون أنّهم يطلبون الحقّ، ولو كانوا يعرفون أنّ ما يطلبونه باطل لما تمسكوا به أبداً، فهم تركوا كلّ شيء من أجل الحقّ ومرضاة الله... إلّا أنّ هذا ترك أثره، فجاءت الآية معرضة بموقفهم هذا أو معاتبة... لكي لا يكرروه مستقبلاً.

وقفة قصيرة:

لابدّ من وقفة مع تفسير الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أوّلاً: الذي يبدو من ظاهر الآية أنّها جاءت رافضة للحالة التي انتابت جمعاً

من المسلمين في ميدان المعركة من الرغبة في أسر المزيد من المشركين، وأنّ العتاب أو التعريض الوارد في الآية كان ينصبّ على هؤلاء المقاتلين، الذين راحوا يتسابقون داخل المعركة لأخذ المشركين أحياءً أسرى ليفادوهم فيما بعد، لا أنّ التعريض القرآني جاء للذين قبلوا الفداء من الأسرى بعد انتهاء المعركة، وبعدما قرّر رسول الله ﷺ ذلك، وإلّا فإنّهم أخذوا الفداء منهم أو من الموسرين منهم بأمر رسول الله ﷺ حينما اختار الفداء واحداً من عدّة وسائل لتحرير أسرى بدر، وبالتالي إن قلنا: إنّ التعريض يشمل هؤلاء، فهو إذن يشمل رسول الله ﷺ لأنّه قرّره من ضمن خياراته لإطلاق سراحهم، ولو لم يقرّره لما تجرّؤوا على أخذه.

يقول العلّامة الطباطبائي: والعتاب به علىٰ ما يهدي إليه سياق الكلام في الآية الأوّل إنّما هو علىٰ أخذهم الأسرىٰ كما يشهد به قوله في الآية الثانية ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في أخذكم، وإنّما أخذوا عند نزول الآيات الأسرىٰ دون الفداء، بل يشهد قوله ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً...﴾، حيث افتتحت بفاء التفريع التي تفرّع معناها علىٰ ما تقدمها...[1]، هذا أوّلاً.

وثانياً: لم يكن النصّ القرآني من موافقات القرآن الكريم لرأي عمر الذي أراد قتل الأسرى هو وعبدالله بن رواحة وفريق معهم؛ لأنّ تعريض القرآن الكريم لم يأتِ بخصوص الذين قبلوا الفداء بعدما رأى رسول الله ﷺ ذلك حتّى نقول: إنّه جاء موافقاً لما أراده عمر من قتل الأسرى كما يحلو لبعض المفسّرين ذلك، بل التعريض القرآني جاء للذين راحوا يهمّون بالحصول ـ داخل المعركة ـ على أسرى، قبل أن يبالغوا في تعميق جراح المشركين، وراحوا يتسابقون في الحصول على أكبر عدد منهم أحياءً طمعاً في الفداء من قبل أن يجعلوهم عبرةً لغيرهم وبالتالي فلا يعاودون الكرّة على المسلمين أو على الأقلّ يحسبون لها ألف حساب

(١) الميزان في تفسير القرآن ٥: ١٣٥، ففيه تفصيل وافٍ.

قبل أن يقدموا عليها.

وإن قبلنا أنّ الآية جاءت موافقة لرأي أحدهم، فمن باب الإنصاف أنّها جاءت موافقة لرأي سعد بن معاذ لا عمر بن الخطّاب؛ لأنّ التفاتة سعد سبقت موقف عمر، وهي التفاتة داخل المعركة لا بعد أن وضعت المعركة أوزارها، واتّخاذ القرار حول الأسرى.

تقول الرواية: رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله ﷺ: والله لكأنّك يا سعد تكره ما يصنع القوم! قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أوّل وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحبّ إليّ من استبقاء الرجال.

ثالثاً: أنّ الإثخان الذي ذكرته الآية، المقصود به الإثخان حينما كانت المعركة قائمة، وحينما كان السلاح بأيدي المقاتلين المسلمين، فهذا أكثر وقعاً على أعدائهم وهم مسلحون، وهو ما أراده سعد «... فكان الإثخان في القتل أحبّ إليّ من استبقاء الرجال». لا الإثخان فيهم وهم مجرّدون من السلاح، فالإثخان فيهم قتلاً وتقتيلاً وهم مقاتلون يكون أكثر عبرة، لا وهم عزل أسرى، فتثار عندئذٍ الشبهات، فالأسر بعد أن يثخن النبيّ في الأرض، يثخن فيهم في ساحة الوغى قتلاً وتقتيلاً واستيلاءً على معاقلهم وأرضهم... عندئذ يأتي الأسر إن كان هناك من يؤسر، لا أن يكون الهمّ الأوّل للمقاتل المسلم أن يأسر، بل الهمّ الأوّل يجب أن يكون القتل والردع وزرع الرعب في قلوب المشركين ومَن خلفهم وهو ما تريده الآية وتهدف إليه.

بينما الذي أراده عمر هو الإثخان بهم وهم أسرى، وبما أنّه لا قتل بعد الأسر باستثناء مجرمي الحرب، فقد حلّ الفداء وجاز الانتفاع والتمتّع بما يقدّمه الأسير من مال لفكّ رقبته خاصّة بعد أن أقرّه رسول الله ﷺ وأمر به.

تقول الآية: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ

﴿فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً﴾(١).

أي أكثرتم فيهم القتل والجروح في ساحة الوغى فضعفوا عن المقاومة عند إذن يأتي دور الأسر، وقد ذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق، قال: حدّثني محمّد أبو جعفر بن علي بن الحسين، قال... فقال: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي قبلك ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ﴾ من عدوّه ﴿حَتّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يثخن عدوّه حتّى ينفيه من الأرض ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا﴾ أي المتاع، الفداء بأخذ الرجال. يقول الطبرسي: وهذا خطاب لمن دون النبي صلى الله عليه وآله من المؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرىٰ في أول وقته ورغبوا في الحرب للغنيمة...(٢) ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ثواب الآخرة أي بقتلهم؛ لظهور الدين الذي يريد إظهاره والذي تدرك به الآخرة(٣).

إذن فالاثخان المراد هو الإثخان في المعركة، لا الإثخان في الأسرى الذي أراده عمر بن الخطّاب وفريقه.

أمّا بخصوص الآية التالية ﴿لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ﴾ فقال: أي من الأسارى والمغانم ﴿عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لولا أنّه سبق منّي أنّي لا أعذّب إلّا بعد النهي ولم يكن نهاهم أو حتّىٰ يبين لهم ما يتّقون...، لعذّبتكم فيما صنعتم، ثمّ أحلّها له ولهم رحمةً منه، وعائدةً من الرحمن الرحيم فقال: ﴿فَكُلُوا مِمّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤).

فبعد أن بيّنت الآية الكريمة متى يقع الأسر، إنّه بعد الإثخان، عرّضت بما فعلوه من أخذ الأسرى طمعاً في دنيا زائلة، وبعد هذا التعريض الذي أرادته الآية

(١) سورة محمّد: ٤.

(٢) مجمع البيان ٣: ٨٥٨.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٧٦ ـ ٦٧٧.

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٣: ٨٥٨.

درساً بليغاً لهم... راحت تبيح لهم ما أخذوه من غنائم وما أخذوه من فداء على الأسرى. على أن يتّقوا الله تعالى، وأن لا يعودوا لمثلها بأن يكون همّهم هو الغنائم والأسرى، فأين هذا ممّا ذكره بعض المفسّرين وممّا أسموه ـ بلا وجل ـ بالموافقات لقول عمر؟!

الثاني: بعث الأمل في نفوسهم...

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

نزلت هذه الآية المباركة في أسرى بدر؛ لتشكّل بذلك موقفاً قرآنياً لصالحهم، فلم يقف القرآن الكريم عند تبيين حكم الأسرى، بل راح يسلّيهم عمّا فقدوه من أجر عظيم بسبب موقفهم ضدّ الرسالة الجديدة، ويفتح لهم أبواباً أُخرى للخير والعطاء، يمكن أن تعوّضهم عمّا خسروه من أجر ومن فداء؛ ليشتروا به حرّيتهم التي ذهبت بأسرهم، وربّ ضارّة نافعة كما يقال، إذا أحسنوا واتّقوا.

فقد روي عن العباس بن عبدالمطلب أنّه قال: نزلت هذه الآية فيَّ وفي أصحابي، كان معي عشرون أوقية ذهباً فأخذت منّي، فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً، كلّ منهم يضرب بمال كثير، وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم، وما أُحبّ أنّ لي بها جميع أموال أهل مكّة، وأنا أنتظر المغفرة من ربّي.

فيما قال قتادة: ذكر لنا أنّ نبيّ الله ﷺ لمّا قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضّأ لصلاة الظهر، فما صلّى يومئذ حتّى فرّقه، وأمر العبّاس أن يأخذ منه

(١) سورة الأنفال: ٧٠.

ويحثي فأخذ، فكان العبّاس يقول: هذا خيرٌ ممّا أخذ منّا وأرجو المغفرة..[١].

يقول سيّد قطب: ثمّ يلمس قلوب الأسرى لمسةً تُحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور، وتعلّقها بمستقبل خير من الماضي، وبحياة أكرم ممّا كانوا فيه، وبكسب أرجح ممّا فقدوا من مال وديار، وبعد ذلك كلّه بالمغفرة والرحمة من الله.

ثمّ واصل حديثه بقوله: هذا الخير كلّه معلّق بأن تصلح قلوبهم فتنفتح لنور الإيمان فيعلم الله أنّ فيها خيراً.. والخير هو الإيمان حتّى ما يحتاج إلى ذكر وتنصيص. الخير محض الخير، والذي لا يسمّى شيء ما خيراً إلّا أن يستمدّ منه وينبثق منه ويقوم عليه.

ثمّ قال: إنّ الإسلام إنّما يستبقي الأسرى لديه؛ ليلمس في قلوبهم مكامنَ الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقّي والتأثّر والاستجابة للهدى، لا ليستذلّهم انتقاماً، ولا ليسخّرهم استغلالاً، كما كانت تتّجه فتوحات الرومان وكما تتّجه فتوحات الأجناس والأقوام[٢].

إذن فالإسلام طَموحٌ ويأمل الخير من هذه النفوس التي كانت بالأمس تقاتله وتريد الإطاحة به وبمبادئه التي جاءت لإنقاذ الإنسان، نعم إنّه لا يقنط من أن يفجّر فيها منابع الخير ومنابت العطاء. لهذا تراه يرعى الأسرى ويمدّهم بكلّ ما يخرجهم من هذا الأسر ومن ماضيهم التعيس.

فجاءت هذه الآية دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على هدف الإسلام العظيم.

بنو قريظة:

اليهود بطوائفهم الثلاث بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، هؤلاء الثلاثة

(١) أُنظر مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي ٤: ٨٦٠ ـ ٨٦١ وغيره من التفاسير.

(٢) أُنظر في ظلال القرآن، سيّد قطب ٣: ١٥٥٣.

كانوا قد اتّخذوا من أطراف المدينة سكناً لهم بعد أن طردهم نبوخذنصر من الشام وشتّت جموعهم ولاحقهم حتّى لم يجدوا مكاناً يأوون إليه ويأمنون به من ملاحقة نبوخذنصر ومن بطشه بهم، إلّا يثرب، سكنوا فيها وصارت لهم أسواقهم واتسعت تجارتهم وقويت شوكتهم، ولكنّهم لم تطهر نفوسهم كأنّها أُورثت الحقد والخبث على غيرهم، حقّاً ما في الآباء يرثه الأبناء.

ولمّا حلّ رسول الله ﷺ بالمدينة بعد هجرته من مكّة، وراح يبني أُسس دولته الفتية على أكتاف جموع من المؤمنين به وبرسالته الجديدة، من المهاجرين والأنصار، كان من مهامّه الأساسية وهو عارف بتركيبة مجتمع يثرب وقبائلها وطوائفها المتعدّدة والتي كان منها قبائل اليهود الثلاث، أن يوادع هذه القبائل متعهِّداً باحترامهم واحترام عقائدهم مع ضمان حرّية عبادتهم وشعائرهم ولهم أن يعيشوا ويعملوا كالآخرين بأمنٍ وسلام.. ما داموا موادعين مسالمين، لا يهجمون على مسلم ولا ينصرون عدوّاً للمسلمين، ولا يعكّرون أمناً ولا يسيئون إلى جوار...

لم يتمالك هؤلاء أنفسهم وما فيها من بغض لرسول الله ﷺ وللمسلمين وقد جبلوا على الفتنة والتآمر، فسرعان ما نقض بنو قينقاع العهد وتبعهم على ذلك بنو النضير، فراحوا يحرّضون الأعداء، ويتعاونون معهم ويقدّمون ما يحتاجه المنافقون داخل المجتمع المدني الجديد، فما كان من رسول الله ﷺ إلّا أن أجلاهم عن قراهم، فذهب جمعٌ منهم إلى منطقة أدرعات فيما ذهب الآخرون إلى خيبر، واكتفى رسول الله ﷺ بهذا الإجراء؛ لأنّ عملهم لم يرتقِ إلى أكثر من هذه العقوبة.

فيما كان لرسول الله ﷺ مع بني قريظة أمر آخر وحكم أشدّ، وكانت عقوبتهم على قدر جريمتهم النكراء وخيانتهم الكبرىٰ، وأخيراً فقد كلّفتهم هذه الجريمة حياتهم.

جريمتهم القذرة:

حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وهما من كبار ومن زعماء يهود بني

النضير، ذهبا مع آخرين منهم في السنة الخامسة من الهجرة النبوية إلى مكّة حيث المشركون من قريش وحيث زعماؤهم لإقناعهم وتحريضهم على الدين الجديد ونبيّه محمّد ﷺ، وعلى قتالهم ووضعوا قدراتهم بين أيديهم ووعدوهم بغيرها كثمار خيبر لعام كامل، ثمّ ذهبوا إلى غطفان للمهمّة نفسها، وراحوا يحزّبون قريشاً وغطفان ويقولون لهم: إنّا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله...

ولمّا سألتهم قريش: يا معشر اليهود، إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمّد، أفديننا خيرٌ أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى بالحقّ منه.

فأنزل الله في موقفهم هذا قرآناً (الآيات ٥١ ـ ٥٥ من سورة النساء).

فلمّا قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتّعدوا له...[١].

ولم يكتفوا بهذا بل راحوا يحرّضون يهود بني قريظة على نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ والانضمام إليهم وإلى عشرة آلاف مقاتل من مشركي قريش وغطفان، الذين تمركزوا بأطراف المدينة بقيادة أبي سفيان، والذي منعهم عن اجتياز المدينة وهو الخندق، فبإشارة من الصحابي الجليل سلمان الفارسي، حفر المسلمون خندقاً في ستّة أيّام، في الجانب المكشوف من المدينة، وراحت عساكرهم الثلاثة آلاف تخندق إلى جانبه وظهورهم كانت إلى جبل سلع الذي يحميهم من الخلف.

في هذه الحالة التي يعيشها المسلمون اقتنع زعيم بني قريظة كعب بن أسد بآراء حيي بن أخطب فنقض عهده مع رسول الله ﷺ، ليتحوّل إلى طابور يقوّض وحدة المسلمين من الداخل، كما وعد المشركين بأنّه معهم في قتالهم مع المسلمين،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٢٦.

وبدأ يمدّهم بالعون والمساعدة، فشكّل بعمله هذا دوراً قذراً وخطيراً على الجماعة المسلمة.

ما إن سمع رسول الله ﷺ بما آلت إليه أُمور بني قريظة وأفعالهم، حتّىٰ أرسل رسولين منه وهما سعد بن معاذ سيّد الأوس وسعد بن عبادة سيّد الخزرج مع شخصين آخرين؛ ليستطلعوا الأمر، فوجدوا بني قريظة مصرّين على موقفهم هذا، وباءت جهود الوفد في إقناع بني قريظة بعدم نقض عهدهم وإلّا سيحلّ بهم الجزاء العادل كما حلّ بإخوانهم اليهود من بني قينقاع وبني النضير، باءت جهود الوفد هذه بالفشل، وكان جواب كعب يتّصف بالغلظة والشدّة، ناكراً أن يكون قد عاهد الرسول ﷺ بشيء، وراح وزمرته الخبيثة يشتمون رسول الله ﷺ.

ولم يقف عملهم هذا عند حدٍّ، بل استعدّ كعب وبنو قريظة وأرسلوا إلى الأحزاب يستمهلونهم عشرة أيّام؛ لإكمال عدّتهم وطلبوا من الأحزاب مشاغلة المسلمين، ريثما يرتّبون أُمورهم، فيما راح الأحزاب يوزّعون أنصارهم على ثلاث فئات أو جماعات، كلّ واحدة تقف في مكان قرب الخندق لمواجهة المسلمين.

هذان العدوّان راحا يتفاعلان مع المنافقين داخل المدينة، هؤلاء الذين أسسوا علاقات سرّية مع كلا الجانبين، مع المشركين في أطراف المدينة ومع اليهود خاصّة بني قريظة داخل المدينة.

بدأ الخوف يدخل قلوب مسلمي المدينة خاصّة مَن ضعف إيمانه منهم، فأتى جمع منهم إلى رسول الله ﷺ قائلين له: ﴿إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ...﴾ أي هي غير حصينة ولا منيعة وتجيب عن ذلك السماء: ﴿وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّ فِراراً﴾[1].

هذا الواقع المرير وخطورته راح يصوّره لنا القرآن الكريم بقوله:

﴿إِذْ جاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ

---

(١) الأحزاب: ١٣.

الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً * وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً * وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ...﴾[١].

مقابل هذا هناك تصوير آخر يبيّن فيه تعالى وضع المخلصين الصادقين من المسلمين حيث يقول: ﴿وَ لَمّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هٰذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلاّ إِيماناً وَ تَسْلِيماً﴾[٢].

الحرب خدعة

قدّر لرجل من آل غطفان يكتم إسلامه، دورٌ عظيم،، فقد خلط على الأحزاب واليهود أوراقهم، وراح ينفّر بعضهم من بعض عبر خطّة ذكيّة.

لم يكن هذا الرجل حتّى وقت قريب من مشروعه هذا مسلماً، بل عرف بين المشركين واليهود بأنّه عدوّ لرسول الله ﷺ، وهذا ما نفعه كثيراً في تخذيلهم عبر خطّته التي أمره بها رسول الله ﷺ حينما جاء ليسلم.

وكان أوّل عمله أن ذهب إلى بني قريظة، وكان من ندمائهم في الجاهلية، ولم يكن لهم علم بإسلامه، فقال لهم: إنّكم نكثتم العهد وقرّرتم مناصرة الأحزاب، ولكن ماذا تكون نتيجتكم لو رجعت الأحزاب دون نصر، فإنّ الدائرة تدور عليكم وحدكم؛ لذا أرى أن ترسلوا إلى قريش وغطفان وتطلبوا منهم رُهُناً حتّى تضمنوا بقاءَهم.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثمّ مضى على وجهه إلى قريش فغطفان وأسرّ إليهم أنّ بني قريظة ندموا على

(١) الأحزاب: ١٠ـ٢٧.

(٢) الأحزاب: ٢٢.

نقض العهد، وأنّهم أرسلوا إلى الرسول يسترضونه ويقولون: إنّهم يأخذون منكم رهائن ويرسلونهم إليه ليضرب أعناقهم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوها. هذه خلاصة خطته، وأما تفصيلها:

فيقول الخبر عن نعيم هذا: أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إنّي قد أسلمت، وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنّا إن استطعت، فإنّ الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتّى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إيّاكم، وخاصّة ما بيني وبينكم، فقالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره، وإنّ قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمّد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بعيدة، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزة (انتهاز الفيء واختلاسه) أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتّى تأخذوا منهم رُهناً من أشرافهم، يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمّداً حتّى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثمّ خرج حتّى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومَن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمّداً، وإنّه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقّاً أن أبلغكموه نُصحاً لكم، فاكتموا عنّي، فقالوا: نفعل، قال: تعلموا أنّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمّد، وقد أرسلوا إليه: إنّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك على من بقي منهم حتّى نستأصلهم؟

فأرسل إليهم : أن نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثمّ خرج حتّى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ، إنّكم أصلي وعشيرتي ، وأحبّ الناس إليّ ، ولا أراكم تتّهمونني ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتّهم .

قال : فاكتموا عنّي ، قالوا : نفعل ، فما أمرك؟ ثمّ قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم(١) .

فعلاً إنّها مكيدة ذكية ، راحت تفعل فعلها فيهم جميعاً وتؤتي نتائجها ، فقد أرسل الأحزاب جماعة منهم عكرمة بن أبي جهل إلى بني قريظة ، قائلين لهم : إنّا لسنا بدار مُقام ، قد هلك الخفّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتّى نناجز محمّداً ، ونفرغ ما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم أنّ اليوم يوم السبت لا نعمل فيه شيئاً ... وطلبوا من الأحزاب رهائن ضماناً لبقائهم معهم .

وهنا لم يبقَ عند الأحزاب ـ بعد الذي سمعوه ـ شكّ فيما قاله نعيم ، فداخلهم الشك والقلق من حلفائهم بالأمس ، ثمّ راحت الأحوال الجوّية هي الأُخرى تؤدّي دوراً آخر ، فهطول الأمطار وغزارتها وهبوب الرياح وبرودتها والعواصف وشدّتها قلعت خيام الأحزاب وبعثرت أمتعتهم ، فأدخلت بذلك الرعب والخوف عليهم .

وهم في هذه الحالة المقلقة ، داخلهم وهمٌ أنّ المسلمين بدأوا يقتربون من مواقعهم ، مقدّمةً لمداهمتهم .

وراحت هذه الأوهام والمخاوف تتجذّر في نفوسهم فإذا بطلحة بن خويلد وقد نادى : أنّ محمّداً يعبر إلينا ويورثنا الهلاك فالتمسوا النجاة ، وما إن صكّ هذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ : ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

النداء آذان أبي سفيان حتّى نادى بمثله.

فرحلت الأحزاب تحت جنح الظلام، وعند الصباح لم يكن لهم أثرٌ يذكر.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها...﴾[1].

والجنود الأولى هم: قريش وغطفان وبنو قريظة، والجنود الأُخرى هم الملائكة. وباءت خطّة يهود بني قريظة بالفشل الذريع، وحلّ بهم جزاء فعلتهم هذه العقابُ العادل.

إذ كان دورهم وغدرهم مساوياً إلى دور قريش وغطفان ولا يقلّ عنهما أبداً إن لم يكن أشدّ من ذلك وأمضىٰ فعدو الداخل قد يكون أكثر خطراً من عدو الخارج وأعظم كيداً. لهذا ترى القرآن الكريم يذكرهم جميعاً بمنزلة واحدة ﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ...﴾، ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ...﴾ والجنود هم: بنو قريظة الذين جاءوهم من فوقهم، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان[2].

جزاؤهم

إذن بنو قريظة ارتكبوا خيانةً كادت تودي بالجماعة المسلمة وتقضي على الدين الجديد، وفي أقلّ التقادير عرّضت المجتمع الجديد ورسالته لأخطر موقف وأشدّه، وكاد أن يترك آثاره السيئة على الحالة الإسلامية لولا رحمة السماء، وقد استشهد من المسلمين نتيجة هذا التحالف القذر والتآمر الدنيء ستّة نفر.

فخيانتهم للعهد وغدرهم برسول الله صلى الله عليه وآله، وممالأتهم لمشركي قريش وتقديم العون لهم، وتعاونهم مع منافقي المدينة في أن يجعلوا أنفسهم عامل هدم للمسلمين

(١) الآيات ٩ ـ ٢٥ من سورة الأحزاب.

(٢) أُنظر الآيات الخاصّة بوقعة الخندق وبني قريظة ٩ ـ ٢٧ من سورة الأحزاب.

من داخل المدينة، لتشتيت صفّهم وتضعيف كيانهم.

وأيضاً إصرارهم على مواقفهم هذه التي منبعها الخبث والحقد مع كلّ جهود رسول الله صلى الله عليه وآله في أن يحيّدهم، إلّا أنّهم زادوا عناداً وإصراراً على موقفهم هذا. خيانة عهد وعداء قذر للمسلمين، وإعلام مضاد شنّوه ضدّهم، وتعاون مع المنافقين، وتحريض الأحزاب وإمدادهم بما يحتاجون إليه.

ما إن مكث رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون قليلاً لصلاة الظهر حتّى أمر مناديه أن يؤذن في الناس: «مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلّا في بني قريظة».

فتوجّه المسلمون من فورهم إلى حيث حصونها وقلاعها يتقدّمهم الإمام علي عليه السلام برايته. حتّى إذا دنا سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وآله فرجع حتّى لقي رسول الله صلى الله عليه وآله بالطريق، فقال: يارسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لِمَ؟ أظنّك سمعت منهم أذى؟ قال: نعم، يارسول الله، قال صلى الله عليه وآله: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.

تقول الرواية: فلمّا دنا رسول الله صلى الله عليه وآله من حصونهم، قال: يا إخوان القِردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وكما تقول الرواية: إنّ جبريل سبق رسول الله صلى الله عليه وآله ـ بعد أن أبلغه أمر السماء بالتوجّه إليهم ـ نحو بني قريظة ليزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم.

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله خمساً وعشرين ليلة حتّى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، ولمّا تيقّنوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله غير منصرف عنهم حتّى يناجزهم، قال أحدهم وهو كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيّها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنّه نبيٌّ مرسل، وأنّه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

ثمّ طلب منهم أن ينزلوا إلى المسلمين ليقاتلوهم، فاعتذروا مرّةً بأنّهم لا يستطيعون قتل نسائهم وأبنائهم كما طلبها هو، ومرّةً بأنّهم لا يريدون إفساد سبتهم.

فقال لهم: ما بات رجل منكم منذ ولدته أُمّه ليلة واحدة من الدهر حازماً[١].

ثمّ طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث لهم أبا لبابة بن المنذر؛ ليستشيروه لكنّه لم يحسن التصرّف، وقصّته معروفة[٢].

ولمّا يئسوا من مقاومتهم للمسلمين وإنهاء الحصار المضروب عليهم طيلة هذه المدّة، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وشفعت لهم الأوس وهم حلفاؤهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ. وقبل اليهود بحكمه قائلين: نتزل على حكم سعد بن معاذ، ثمّ قال له جمع: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإنّ رسول الله ﷺ إنّما ولّاك ذلك لتحسن فيهم... فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه،... فإنّي أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

تقول الرواية: إنّ رسول الله ﷺ قال لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سموات، الواحدة: رقيع)[٣].

وهذا نتيجة خيانتهم وغدرهم وتآمرهم، وتمّ قتلهم وفيهم حُيي بن أخطب، وكعب بن أسد رأسهم، واختلف في عددهم فقول: إنّهم ستمائة أو سبعمائة، وقول:

(١) أُنظر السيرة النبوية ٣: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٢) أُنظر السيرة النبوية ٣: ٢٤٧ وما بعدها.
(٣) أُنظر السيرة النبوية ٣: ٢٥١.

إنّ عددهم كان بين ثمانمائة وتسعمائة[1].

ولم يقتل من نسائهم إلّا امرأة واحدة، تلك التي طرحت الرحىٰ علىٰ خلّاد بن سويد فقتلته، أمّا بقية نسائهم وأطفالهم فقد قسمت بين المسلمين، وبعث رسول الله ﷺ بحصة الدولة منها إلىٰ نجد فبيعت هناك، واشترىٰ بها سلاحاً وخيلاً عدّة للمسلمين.

قال تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[2].

ويبدو أنّ سعد بن معاذ لم يكن في حكمه هذا بعيداً عمّا ورد في شريعة اليهود في أعدائهم إذا ظفروا بهم، ومن العدل أن يحكم فيهم بما يحكمون به أعداءَهم.

فهذه التوراة، في سفر التثنية ١٠ ـ ١٥ تقول:

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الربّ إلهك إلىٰ يدك، فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة كلّ غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربّ إلهك».

---

(١) السيرة النبويّة ٣: ٢٥٢.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٧.